الضـرورات تبـيح المحظورات

♦ فـدوى أنيس القـاسم❖

كان راضيًا بحياته وعمله. يستيقظ باكرًا، ليجد قهوتَه بانتظاره، فيرتشفها من فنجانه المفضّل، ذي اللون الأبيض المزخرف بألوان مائية شفافة. وبعد أن يتناول إفطارًا خفيفًا، يلبس القميصَ وربطةَ العنق والبنطالَ، واثقًا من ذوق زوجته، التي تختار ملابسَه بعناية وحساسية.

كان سعيدًا بزواجه، أو بالأحرى لم يكن تعسًا. فلقد أعجبه الكثيرُ من صفاتها: أسلوبُها في الحديث، أناقتُها، وكذلك جمالُها وثقافتُها. وكان يَشعر أيضًا بإعجابها به.

إذن، لماذا لا يقول إنّه سعيد؟ لأنّه اكتشف أنّها، بالرُّغم من جمالها وأناقتها وثقافتها، باردة. باردة جدّاً!

فهي تبقى باردة حتى حين يقبّلها بحرارة، ويَلْمسها بأنامله التي تَشْتعل شموعًا. يَشعر أنّها تراعيه فقط، وأنّها تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي منها، لتحتضن اللحافَ وتنامَ.

حاول في شهر العسل أن يمارس فنونَ مداعبتها، أن يثيرها، أن يجعلها تشاركه المتعةَ التي يتلذّذ بها. كان يراقبها بدقّة، ينتظر أدنى إشارة تصْدر عنها، تُعْلمه بأنّها غَرقتْ مثلَه في ذلك العالم الجميل الذي يحقّ لها وله أن يَغرقا به. لكنّ شهر العسل انقضى، وباشرا حياتهما الحالية من غير أن يَسْتلم تلك الإشارة. ومرت أشهرٌ بأكملها يأمل باستلام إشارة، دون جدوى.

بدأ يشكّ بقدراته كرجل. فراح ينام متأخّرًا جدّاً، ثم أخذ يتركها تذهب وحدها إلى الفراش لكي لا يراها بقميص النوم الأسود الذي يشفّ عن جمال رائعٍ وجسدٍ بضٍّ فتّان.

اشترى كومبيوترًا، بحجّة أنّه سيتمكّن من إنجاز بعض أعماله. «مادمتُ لا أنام، فلأستفدْ من وقتي!»

في البداية، كان الكومبيوتر للعمل فعلاً، لكنّه سرعان ما تحوّل إلى مقهى تعارُف، عبر غرف الدردشة الكثيرة وبرامج التراسل الفوريّ المعروضة مجّانًا على الشبكة. فتحولت الإنترنت إلى كهف علاء الدين، تعجّ به المغامراتُ، وأسرارُ الحبّ والجنس. تيّاراتٌ تَجْرفه عند الإبحار من موقع إلى آخر. يَسْهر ليلاً، يتفرّج، ويتعلّم، ويناقش مواضيعَ يخجل أن يَذْكرها أمام أحد. لكنّه هناك، في «الويب،» مجرّدُ شبحٍ في عالمٍ لا وجود له، عالمٍ لا مكان فيه للخجل أو الحياء.

♦ ♦ ♦

يحاول أن يستيقظ مبكّرًا كعادته، لكنّه لا يستطيع.

رأسُه لا يزال يُبْحر في غرف الدردشة، وأذنُه تسمع نغمةَ وصولِ رسالةٍ جديدة.

يَنهض من فراشه متأخّرًا، وبصعوبة. قهوته باردة، إفطاره سريع. يَعقد ربطةَ العنق في المصعد دون أن ينتبه إلى تنافر ألوانها مع ألوان ثيابه.

لم يَشْغل بالَ زوجته التغييرُ الذي طرأ عليه. باشرتْ عملَها بالمنزل: الغبار متراكم على الكتب وشرائطِ الموسيقى وألبوماتِ الصور. أما الكومبيوتر فلا غبار عليه.

وقفتْ أمام الجهاز، ضرتِّها. ولكنْ، ما عليها؟ إنّها تفضّل حقّاً سهرَه مع الكومبيوتر على طلباته الجنسية.

غير أنّ فضولَها شدّها إلى محاولة اكتشاف سرّ جاذبية هذه الضرّة. لم يأخذ هذا الموضوع من وقتها سوى بضع ساعات لتتمكّن من التعرُّف إلى زرّ History، ولتتجوّل في كل المواقع التي سبق أن زارها زوجُها. كانت كلُّها متشابهة، ومواضيعُها محدّدة.

توقعتْ أن تجد ما وجدتْ: فهيَ تحضن اللحاف، وهو يَحضن الكومبيوتر. لكنّ الأمر الذي لم تتوقعه هو أن تَلْفت انتباهَها هذه المواقعُ، بل أن تجذبها!

❖ - كاتبة من الإمارات العربية المتحدة. وهذه القصة هي جزء من «دردشيّات» تُعنى جميعُها بالمحادثات عبر الإنترنت.

إنّها مواقع إباحية، بل إباحية جداً. أدْهشها أن تجد نفسَها مشدودةً إلى هذه الصورة وتلك، وأفزعها أن تَنْقر بالفأرة مستسلمةً إلى ما هو أكثرُ من فضول، فتتأمّل كلَّ صورة، وتقرأ كلَّ كلمة.

أما هو، فبالرغم من الوقت الذي يمضيه أمام الكومبيوتر، لم يكن يجيد استخدامَ كافة أدوات برنامج التصفُّح. ولم يَخْطر في باله قطّ أنّها تجول في الويب، وتضيع مثلَه في المواقع، التي تقدِّم للزائر كلَّ ما يشتهي، بلا غموض أو حواجز.

كيف يَخْطر في باله أنّها ترى ما يراه، وتَشْعر بما يَشعر؟ فقد هجرها منذ زمن... وهَجر فكرةَ انتظار الإشارة! لم يعد يَشْعر بها، وهي لا تشعر به. والفراش الذي ينامان عليه لا يَجْمعهما: فهي تنام في الضفّة الشرقية، وظهرُها له، وهو ينام في الضفّة الغربية، وظهرُه لها. وبينهما مسافات ومساحات كبيرة وأسلاك شائكة: منطقةُ حظرِ تجوّل، دُفنتْ فيها الكلمةُ والحنانُ والإحساسُ.

♦ ♦ ♦

لم يعد يحاول الاستيقاظَ باكرًا. يتسلّل من الضفّة الغربية، ويتّجه إلى الباب، ثم إلى الحمّام، دون أن يفكّر بالنظر إلى الضفّة الأخرى. يمضي في عمله متأخّرًا، ويعود متأخّرًا جداً. أصبحتْ ترُوق له فكرةُ الإبحار عبر الشبكة في المكتب، فيخوض فيها بحريةٍ أكبر وخصوصيةٍ أكثر، فلا ينتابه ذلك الشعورُ بالذنْب الذي ينتابه أحيانًا في البيت لوجود زوجته في الغرفة المجاورة.

فنجانه الأبيض التصق بالرفّ، لم يتحرّك منه منذ زمان. فقد كانت تبقى في ضفتها، متظاهرةً بالنوم، إلى أن يَخرج من المنزل، فتقوم بما عليها من أعمال روتينية، من غير تركيز أو تفكير، لتتفرّغ سريعًا لمتابعة رحلة الاستكشاف.

ثمّة أمر غريب يحدث عندما تَستخدم برامجَ الدردشة: فالحواجز التي تَفْرضها الإنترنت تزيل الحواجزَ التي يَفرضها المجتمع. الانجراف سهل، والانحراف سهل. والانسحاب أيضًا سهل، ومتاح في أيّ وقت، ما دامت الحروفُ وحدها هي التي تلتقي لا العيون. والحياة الواقع، مثلها مثل الروايات، تملأها المصادفاتُ الغريبة: فيَصْدُف ذاتَ يوم أن تُبحر متنكّرةً من المنزل، وأن يُبْحر متنكّرًا من المكتب، وأن يلتقيا عبر برنامج الدردشة.

دردشا طويلاً. نالت إعجابَه، على الأخصّ لانفتاحها على مواضيع الحبّ والجنس. وأثارتْه عندما عَلِمَ أنّها زارت بعضَ المواقع الإباحية التي يحدّثها عنها. كانا يتناقشان بحرية تامة في كافة المواضيع، ولكنّ الموضوع الذي كان في ذهنه وذهنها هو موضوع التكافؤ الجنسيّ. فقد أبلغها أنّه هَجَرَ زوجتَه، وأبلغتْه أنّ زوجها هجرها وأنّها الآن فقط بدأتْ تكتشف لماذا.

تصادقا في عالم الأشباح، وتغاربا في عالم الأجساد. يشكو كلٌّ منهما للآخر زواجَه التعس، ثم يرجعان إلى البيت ليعيشا زواجَهما التعس سويّاً. ينتظر كلٌّ منهما فرصةَ الخلود إلى الكومبيوتر، وإلى برامج الدردشة، وينتظران فرصتهما سويّاً.

لكنّه كان يَشْعر أنّه يعرفها، وكان يخشى أن يكون على حقّ. كان صوت صغير بداخله يقول له إنّها هي، إلاّ أنّه كان يكذّب نفسَه.

إلى أن جاء اليومُ الذي جَمع فيه جرأتَه وطَلَب منها صورتَها، فلم تتردّد، وأرسلتْها له، فُذهل. كذب عليها حين طلبتْ صورتَه، وقال إنّه مضطر للذهاب. غير معقول أن تكون هذه المرأةُ الجريئةُ هي زوجتَه الميتة. أين كان حين حدثت المعجزة؟ أين كان حين خرجتْ من كفنها الجنسيّ؟

أما هي فلم تتعرّف عليه. كانت غارقةً في اكتشاف نفسها، وكانت سعيدةً بالصديق الجديد الذي تستطيع أن تناقش معه كلَّ ما يَخْطر في بالها.

عاد يومَها إلى المنزل باكرًا، وطلب فنجانًا من القهوة. خرجتْ من الغرفة، وهو يَنظر إليها خلسةً. بدا له أنّه يراها لأول مرّة: أناقتها، وخفّتها، وميلان جسدها.

أَحضرتْ له الفنجانَ الأبيض. تناوله منها. الفنجان خفيف ورقيق، ألوانُه هادئة. لقد اعتاد على فنجان المكتب، السميك، الذي طُبعتْ عليه إشارةُ الشركة. جلس يَرشف قهوته ببطء. تلاطُمُ الأفكار برأسه يكاد يُسمع عن بعد. تارةً يَشْعر بالغضب الشديد تجاهها: كيف تجرؤ؟ كيف تتحدّث

بهذه الحرية مع رجل تعتقد أنّه غريب؟ وتارةً يهدِّئ نفسَه: فهي لم تتحدّث مع غريب، بل معه هو. لكنّها لا تَعرف أنّه هو! يَسْخر من نفسه، ثم يهنّئ نفسَه على اكتشافها من جديد، ويُعجب بجرأتها.

أصابه صداع شديد، فتوجّهتْ إليه، وبدأتْ بتدليك جبهته، ثم رأسه. أَغمض عينيْه. زحفتْ يداها إلى عنقه، وكتفيْه، وظهره. نزعتْ عنه ربطةَ العنق والقميص؛ أحرجها عدمُ تناسقهما. شعر بيديْها الساخنتيْن على ظهره وأعلى صدره. كان يخشى أن يتحرّك، فتنفكَّ حبالُ السحْر التي تلفّه. استمرّت في تدليكه، إلى أن قَذَفَ في ملابسه!

◆ ◆ ◆

لم ينم ليلتها: فقد شدّته فكرةٌ جنونيةٌ استولت عليه منذ أن أثارته زوجته. وعندما وجدها بانتظاره في الإنترنت، في اليوم التالي، كانت الفكرةُ قد تبلورتْ في ذهنه. تخيّلها جالسةً في البيت أمام الكومبيوتر. ترى ماذا ترتدي؟ قميصَ النوم الأسود الذي يحبّه؟ أم بنطلونَ الجينز وقميصًا أبيض؟

استدرجها بالحديث، وطَلب منها الصراحةَ التامةَ. يكاد يموت لمعرفة شعورها تجاه ما حصل بالأمس، إلاّ أنّه فوجئ بأنّها لم تَشعر بشيء نتيجةً لتدليكها إيّاه. انكمش كثيرًا: فلقد ظنّ أنّ العالم بأكمله شَعر به، وبفرحته. تركها تتحدّث، من غير أن يتنبّه إلى حديثها، أو أن تنتبه هي إلى عدم مشاركته. يعاوده الشعورُ بالغضب، عليها، على نفسه. ها هي تخونه، معه! أَتُعتبر هذه خيانة؟ إنّها فقط تتحدّث إليه، ولكنّها تتحدّث إليه عن أسراره هو.

كان يريد أن يُخْبرها بما فعلتْه يداها، لمجرّد أنّهما كانتا دافئتيْن، لمجرّد أنّهما كانتا يدي امرأةٍ مثلِها رجعتْ تَنْبض بها الحياةُ. لكنّه لم يستطع. فاكتفى بأن قال لها إنّه، كرجل، يعجبه أن تقوم امرأةٌ جميلةٌ بتدليكه.

◆ ◆ ◆

يرجع إلى البيت متأخّرًا. يجدها، وفنجانَ القهوة، بانتظاره. بخجل، تجلس بقربه. يشعر كأنّهما في غرفة الاستقبال في بيت أهلها وقد خرج الجميعُ من الغرفة، بتعليمات من والدتها، وبغير معرفة والدها، لإعطائهما لحظةً نادرةً لا تَخْضع للرقابة. سكّنه هذا الشعورُ بشدّة، وبدأ بالفعل يتصرّف على هذا الأساس. بقي مكانه طويلاً، يحملق في الرسوم على الفنجان، ينتظر أن تأتي المبادرة. منه؟ منها؟ لا يعرف، إنّه ينتظر فحسب.

جاءته يدُها، ساخنةً، كالأمس، وحطّت على يديه. كان يخشى أن يفعل أيَّ شيء، فيخيفَها، وتهربَ منه. قَبّل يدَها، ورسغَها، وزندَها، وكتفَها، وعنقَها... ولم تهرب. حرارة وجهها تدعوه إلى أن يستمرّ.

ظلّ عند عنقها وشفتيْها فصلَ الصيف كلّه، بأيامه ولياليه الحارة. كان يريد أن يستمرّ إلى الأبد. ولكنّ فكرة اللعبة التي يلعبانها، من دون معرفتها، تثيره أكثر. توقّف. توقّف، وهو يعرف أنّها تريد المزيد.

◆ ◆ ◆

- ماذا حصل بالأمس؟

- أردتُ أن أدلّكه كما فعلتُ في السابق، لكنّه أخذ يدي وبدأ يقبّلها إلى أن وصل إلى عنقي.

- ثم ماذا؟ أَخبريني... أرجوكِ، ألم نتّفقْ على الصراحة التامة هنا؟ (هل فقد صوابه؟ إنّه يشجّعها).

- لا شيء...

ـ كيف؟ معقول؟

ـ هذا الذي حصل.

ـ لماذا منعتِه من الاستمرار؟ (من أين له هذا الخبث؟)

ـ لم أمنعه.

ـ هل أثارك؟

ـ نعم. (كان يثيرها أن تتحدّث مع هذا الرجل عمّا فعلتْه مع الآخر. كان يثيرها أن تذهب إلى البيت، وأن تشعُرَ بالمغامرة تملأ أركانَ غرفتهما).

ـ هل أقول لكِ ماذا تفعلين معه كي يستمرّ؟ (كان يثيره أن يَشْرح لها ماذا يحبّ، وأن يَلعب دور المعلِّم والمستفيدِ في الوقت نفسه، من دون معرفتها. تثيره فكرةُ تعليمها، وتثيره فترةُ الانتظار إلى أن يرجع إلى البيت، ويثيره الشعورُ بالترقب، والشوق، والتظاهر بأنّه لا يعرف.

ـ قُلْ...

يُبْحر في الإنترنت، يغوص في المواقع الإباحية، ويَطْلب منها تنفيذَ ما يَرُوق له من مشاهد. في كلّ مرة، كان يغامر أكثر. بتلذّذٍ يصف لها أشياء غيرَ مألوفة يريدها أن تفعلها مع نفسِه الآخر، ثم بتلذُّذٍ تصفَ له ما فعلتْه مع هذا الآخر.

◆ ◆ ◆

يستيقظ متأخّرًا، ينظر إليها، عاريةً بجواره. بشرتُها ناعمة، وتَلمع عليها حبيْباتُ العرق تحت الضوء الفاتر. ينحني فوقها. يلتقط حبةَ عرقٍ بلسانه، ثم أخرى وأخرى. يريد أن يروي عطشَه بعرقها المالح. تتحرّك. تستيقظ. لم يُحدِّثْها الآخرُ عن مثل هذا الموقف. كانت تَحْفظ كلَّ كلمةٍ عن ظهر قلب، وتنفِّذ بدقةٍ كلَّ ما يقوله لها. وكانت تنتظر أن يَحدث أيُّ شيء، لتسجِّله أيضًا بدقّة، ثم تعيد لعبَ التسجيل، عبر الإنترنت، مع الآخر. ماذا عليها أن تفعل؟ أن تَشْعر؟ ليست لديها التعليمات. تتظاهر بالنوم وتتركه يستمرّ وحده. لا يستمرّ. يتوقف وينظر إليها؛ لقد تحولّتْ فجأةً إلى مجرّد جسد عار. يشعل سيجارته. لقد سَلَبَتْ منه هذه العلاقةُ هويّتَه. لقد تاه: بين أحضان المرأة التي طالما انتظر منها تلك الإشارةَ، ومارست الجنسَ معه بلا تحفُّظ، حتى داهمه الشعورُ بأنّها ليست معه في الفراش بل على برامج الدردشة فقط ؛ وبين المرأة التي جذبتْه وأعاد اكتشافَها من جديد، لكنّها لا تمارس الجنسَ معه بكلّ مشاعرها إلاّ عبر الإنترنت.

بدأ يفتقدها، هي، وأناقتَها، وثقافتَها، وحديثَها، وكلَّ جوانب شخصيّتها التي لفتت انتباهَه إليها قبل الزواج. ماذا فعل بها؟ لقد سُلبتْ هويتها هي الأخرى. لم يعد يتعرّف إليها.

◆ ◆ ◆

هي تظن أنّها تحبّه، وتمارس حبَّها له مع زوجها الذي لا تدري إنْ كانت فعلاً تحبّه. أصبحتْ لا تريد الزيارات، لا تريد أن يَدْخل أحدٌ بيتَها، ليأخذ بعضًا من وقتها: فدخولُ أيّ شخصٍ بيتَها يبدو لها اقتحامًا وكشفًا لأفكارها: فهي هنا تمشي وتفكّر فيه، تَسْترجع كلّ لحظة أمضتها معه، وكلَّ كلمةٍ قالها وقالتها.

تخشى أن يَدخل الناسُ بيتها، وهي تعرف أنّ أفكارها ومشاعرها هائمةٌ بالغرف، تصطدم بالجدار، وتحوم حول الضوء، وتفوح رائحتُها مثلَ رائحة العطر الذي تضعه من أجله، رغم أنّه لم يتشمّمها قط... على الأقلّ حسب علمها.

أهملتْ كلَّ شيء: أهملتْ هواياتها، أهملت القراءةَ، والمطالعةَ، والمنزلَ، لأنّها وجدتْه لا يهتمّ لهذه الأمور. فهي تكون بانتظاره، عند عودته من العمل، حسبما طَلَبَ منها الآخرُ، فلا يرى شيئًا سواها. ولا يرى من المنزل سوى غرفة النوم.

يذهب إلى مكتبه. يحاول الابتعاد عن برامج الدردشة، ويفشل: لقد أدمنها.

كيف كانت حياتُه قبلها؟ وماذا كان يفعل من دونها؟ يحاول التركيزَ على عمله، وباقي أركان حياته، ليكتشف أنّ حياته بلا أركان. حياتُه اقتصرتْ على الجنس. حياته ضبابية، أَخْفت بكثافتها ملامحَ الحدود كافةً، وأصبحتْ مجرّدَ ملءٍ للثغرات: بين الحديث عن الممارسة، والممارسة عن الحديث!

انتابته رغبةٌ وحشيةٌ في الحديث عن كل شيء، عن أيّ شيء، غير الجنس. يَفتح برامجَ الدردشة، فيجدها في انتظاره، وقد أرسلتْ له رسائلَ عديدة تبعث في نفسه الاشمئزازَ. يهرب منها، ويلبس قبعةَ الإخفاء، ويبقى على الخط. ترسل له رسالةً تلو الأخرى. يلغيها من دون قراءتها. يُغْلق ويَفْتح الخطَّ عدةَ مرات، ويجدها في كلّ مرة بانتظاره. وكان الحلّ أمامه هو التعرف إلى شخصية جديدة، عبر برامج الدردشة نفسها.

هكذا، وبكل بساطة، دخلتْ سلوى على الشاشة. لم تكن سلوى سوى إناءٍ كبيرٍ من التفهُّم، صَبَّ فيه محتوياتِ قلبه. لم تَطْلب منه شيئًا، ولم يَطْلب منها سوى الاستماع. لا يريد أن يتعرّف على شكلها ومداخل حياتها. تعمَّد الابتعادَ كلياً عن مغازلتها، وفي بعض الأحيان لم يكن يعرفْ إن كانت فعلاً تُنصت إليه، أم تنام على لوحة المفاتيح.

◆ ◆ ◆

لا يحاول الاستيقاظَ باكرًا. لا يحاول النظرَ إليها. يذهب إلى عمله متأخّرًا، ويرجع متأخّرًا جداً. عاد يُبْحر من المنزل، بحرية، ودون الشعور بالذنْب لوجود زوجته في الغرفة المجاورة.

يتوقف عن الحديث مع زوجته، وتتدهور علاقتُهما الفرجوالية والواقعية. يقضي الساعات في الحديث مع سلوى... وغيرِها وغيرِها. أحاديث خالية من الجنس والمعاكسات.

هي انكمشتْ، وجفّتْ، وعادت تنام وحدها، ملفوفةً بكفنها الجنسيّ الممزق. وهو لم يعد يتمنّى أيّ إشارة منها، بل يروق له أن تنام قبله. لا يشعر بها، ولا تشعر به، ولا يجمعهما الفراش. وبينهما كبرتْ مساحةُ الأسلاك الشائكة، ومنطقةُ حذر التجوُّل.

◆ ◆ ◆

يرجع إلى البيت متأخّرًا، فلا يجد فنجانَ القهوة، ولا يجدها.

دبي